القوميــة العربيــة والطوائف الدينيــة في عصر النهضة

د. منذر معاليقي

تمهيد:

الحديث عن الاتجاه القومي يستوجب تقديم نبذة تاريخية، عن بدايات فكرة القرمية العربية، وأهم دوافعها التي استأثرت بدراسة أدباء ومفكري النهضة العربية. بدأت ارهاصات النظرة القومية، في دعوات ومقولات الكتّاب والمفكرين العرب، الذين سجّلوا، دون رؤية واضحة، ودراسة معمّقة، خطوطاً ربما تكون متضاربة، خصوصاً وأنهم كتبوا في زمن تكالبت فيه الدول الأوروبية على «الرجل المريض»، تريد سلخ الأقطار العربية عن الامبراطورية العثمانية، من أجل تسهيل عملية استعماره وبالتالي استغلاله. هذه البدايات المشوّشة، لبّت حاجة البلاد، ازاء هجمة القوميات الغربية، وتنازعها على المستعمرات ومناطق النفوذ، وأيقظت الشعوب المستضعفة، التي أخذت تطالب بحقوقها القومية والاجتماعية، وتتطلع الى اليوم الذي تتمكن فيه من تحرير الوطن، وبناء عزّتها القومية. وقد ألمح بطرس البستاني، في محاضرة ألقاها عام 1859، معتمداً على رابطة اللغة العربية، التي تجمع مختلف الناطقين بها من مسيحيين ومسلمين، إلى كيان اسمه الكيان العربي، والى شيء ينتمي اليه اسمه الثقافة العربية[1].

وفتحت طموحات الخديوي محمد علي الوحدوية، الذي قال عنه **الافغاني**: «ذلك الأمي الكبير، نابغة رجال، وإعصار أجيال...»[2]، أذهان الناس على القومية العربية. وكذلك أيقظت أحاديث ابراهيم باشا القومية العرب، وجعلتهم يستذكرون ماضي أمتهم المجيد. وفي هذا المقام، لا بد من ذكر اليازجيَّين: ناصيف وابراهيم اليازجي اللذين تمكنا من تسليط أضواء على العروبة. فناصيف كثيراً ما اجتمع في بيته الى حلقة من مريديه المثقفين، يتحدثون عن الثقافة العربية ويدعون العرب من مسلمين ومسيحيّين الى نبذ التعصب الديني، والعودة إلى التراث العربي المشترك. وكان لإبراهيم اليازجي في خلال الجمعية السورية، أفضل الأثر في تحريك شعور

العرب القومي. فقد ألقى في أحد اجتماعات الجمعية قصيدته الميمية، التي أثارت مشاعر العرب القومية، ونالت شهرة واسعة، برغم عدم تدوينها خوفاً من إدانته بالخيانة:

سلامٌ أيها العـــرب الكـــرامُ وجـــاد ربـــوع قطـــركم الغمامُ
ومـا العـرب الكـرام سـوى نصـال لها في أجْفـن العليـا مقـامُ
لعمـرك نحن مصـدر كـل فضـل وعـن آثـارنـا أخـذ الأنـامُ[3]

طبعت الجمعية السريّة العربية عقول الناشئة بالكرامة والعزة، وجعلتهم يتوقون الى تحقيق دولتهم القومية الانسانية. فإبراهيم اليازجي نفسه، يستفيد في اجتماع سري للجمعية ليلقي خطبته العربية التي بوّأته سدّة ريادة الداعين الى القومية العربية فيقول:

تنبهـوا واستفيقـوا أيها العـربُ فقد طمى الخطب حتى غاصت الركبُ
بـالله يـا قـومنـا هبـوا لشـأنكـم فكـم تـناديكـم الأسفـار والخطـبُ
ألستم من سيطروا في الأرض، واقتحموا شرقاً وغرباً وعـزّوا اينما ذهبـوا»[4]

وهكذا أخذت تباشير الوعي القومي تتصدر اهتمامات رواد النهضة العربية الحديثة، الذين أنشأوا عام 1875، أوّل جمعية سرية، مركزها الرئيس بيروت، ولها فروع في طرابلس وصيدا ودمشق. ولم يعرف ـ لسريتها وخطورة مبادئها الاستقلالية والقومية ـ أسماء مؤسسيها، باستثناء دكتور فارس نمر، ويعتقد أن **عبد الرحمن الكواكبي وشبلي شميل** كانا من أعضائها البارزين. اتبع أعضاء الجمعية سياسة ذكية في تعاملهم مع السلطات التركية، إذ انهكوها بخطط كتابة المنشورات الطيّارة، التي تلصق على جدران الشوارع في أوقات محددة، تندد بسياسة الأتراك الغاشمة، ومفاسد نظامهم. ومما جاء في أحد بياناتها (وعُدَّ ذلك برنامج عمل للحركة العربية التي تمّتها مواقف حزب «تركيا الفتاة» الاستبدادية): 1 ـ منح سورية ولبنان الاستقلال. 2 ـ ضرورة الاعتراف باللغة العربية لغة رسمية في المناطق التي تقطنها أغلبية عربية. 3 ـ رفع الرقابة والقيود التي تحدّ من حرية الرأي والاجتماع والنشر. 4 ـ استخدام القوات المجندة من أهل البلاد[5].

أكّدت هذه البنود هويّة مفهوم الجماعة، فالبند الأول، المتضمن وحدة لبنان وسورية عزّز فكرة القومية العربية. رغم صدور قانون 1864، إثر مجازر الستين الطائفية، الذي أعطى جبل لبنان، استقلالاً ذاتياً عن سورية، ونظاماً خاصاً به. وبفعل هذه الحركات والجمعيات، تبلورت المفاهيم القومية، وأضحت المنطقة العربية تمور بنشاطات أدبية وسياسية تدعو إلى اللامركزية والاستقلال، وأصبح عنصر المفاجأة بالنسبة للإنسان العربي، شيئاً عادياً، حيث يترقب انبلاج حياة جديدة، تعيد اليه مجده وعزته، وهذا ما عبّر عنه أحد كتّاب فرنسا الذي زار بلاد الشام 1882، وسجل انطباعه عن انعكاس وانتشار الروح القومية آنذاك «انتشرت روح الاستقلال

انتشاراً واسعاً، وكان الشبان من المسلمين خلال اقامتي في بيروت منهمكين في تنظيم الجمعيات لإنشاء كثير من المدارس والمستشفيات[6]... وعن رأيه في المسلمين أضاف صاحب المقال: إن توجّههم غير طائفي، ونشاطهم بريء من وصمة التعصب الطائفي. ويثبت التاريخ أن هذه الجمعيات قبلت عضوية النصارى وأشركتهم في قيادة ومسؤولية معارضة الأتراك. وفي سبعينيات القرن التاسع عشر جاب دي ديغوار (رحالة فرنسي) البلاد العربية فرأى علائم الامتعاض من الأتراك، ورغبة التخلص من حكمهم. فكتب ما يلي: لقد قابلت في كل مكان ذلك الاحساس الواحد الدائم المشترك: كراهية الأتراك»[7]. هذا الاحتجاج على الأتراك، أكدّه قنصل انكلترا في دمشق، في تقريره المرفوع 1881 إلى وزارة الشؤون الخارجية: «ان الشيء الوحيد الذي يربطهم [السوريين] بعضهم ببعض هو كراهية السلطة التركية[8]». لقد بات واضحاً أن شيئاً ما يخطط في الديار العربية، وأن هذا الشعب الذي بقي قروناً تحت سلطة الأتراك، مهيض الجناح، سيعرف كيف ينتفض على ظالميه، ويأخذ مكانه تحت الشمس. لكن هذا المخطط، الذي تناقلته الأقلام العربية والأجنبية وأشارت فيه إلى وجود حركة عربية منظمة في مختلف المناطق العربية، جعلنا نبادر إلى الرد العلمي الذي يرفض الأخذ بمثل هذه الترهات: فتفكك الأمة العربية يومذاك، والأوضاع الداخلية السيئة التي عاشتها كل منطقة على حدة، وعدم وجود وسائل نقل وسكك حديدية، إضافة إلى كمّ صوت الصحافة والرقابة الصارمة عليها، كلهّ يجعل التفكير بوجود حركة أو ثورة عربية شاملة، أمراً صعباً. والحقيقة أن البلاد عرفت وجود مخاضات عربية ترمي الى الاستقلال، وتململات تنزع الى الحرية، والانسلاخ عن الحكم التركي، الذي لم يستطع أن يقضي على عروبة المسيحيِّين والمسلمين الذين بادروا مع فجر النهضة العربية إلى المطالبة بالحقوق القومية، وأعلنوا، قيادات وروادًا، ضرورة الحفاظ على التراث العربي، واللغة العربية. وقد لعبت القيادة المسيحية، في بداية الانبعاث القومي، أفضل الدور في تحريك الشعور العربي، وتفتيح الفرد العربي على حب الوطن. فالشيخان ناصيف اليازجي وابنه ابراهيم، خدما العربية وثقافتها كثيراً، كذلك فعل بطرس البستاني، الداعية الأكبر الى محبة الأوطان والذود عنها، فشجع المبادىء الوطنية والقيم الأخلاقية، ونبذ التعصب والنعرات الطائفية، وآلف بين الطوائف المتنازعة، وأعان على تمتين الوحدة الوطنية وترسيخ وحدة العرب والعروبة. لكن انتشار تعليم اللغة الأجنبية في مدارس الإرساليات التبشيرية، وسفور هذه المدارس عن وجهها السياسي الاستعماري، واقتصارها على أبناء الطائفة المسيحية، كل ذلك حوَّل قيادة العروبة من المسيحيين إلى المسلمين الذين جهدوا في مدارسهم الاسلامية الى ملازمة العربية رغم أنها أقلّ مستوى وكفاية من الأجنبية، والذين ينتمون، في قسم كبير منهم، الى البورجوازية والارستقراطية الدينية والبيروقراطية. هذه الفئات الاسلامية التي لها متطلبات ومصالح اقتصادية وسياسية معنية، قد حال الحكم التركي الاقطاعي دون تحقيق رغباتها ونموها، ومنعها من الوصول الى المناصب والمراكز الحساسة في الدولة ـ خوفاً من الانقلاب عليه ـ فتداعت هذه الفئات الى معارضته والمطالبة باللامركزية والاستقلال القومي. من هذا المنطلق أيّدت هذه الفئات جمعية الاتحاد والترقي (الاتجاه العسكري في صفوف تركيا الفتاة)، وهللت لانقلابها

العسكري عام 1908 وشعاراته المؤيدة للحقوق القومية للشعوب والأمم التي تضمها الأمبراطورية، معتبرة أنها نقطة تحول في سبيل تدعيم مركزها السياسي. لكن الأحداث خيَّبت آمالها، لأن الاتحاديين بأغلبيتهم الساحقة، يميلون إلى الحكم المركزي والسيطرة على بقية العناصر الأخرى. وهكذا بعد تحوُّل قيادة العروبة من المسيحيين إلى المسلمين، وبعد تغلغل المفاهيم الأوروبية وتعاليمها عبر مؤسساتها التبشيرية والتعليمية، الى فئات واسعة من المثقفين النصارى، وبعد الظلم الذي لحق بهؤلاء من قبل الأتراك المسلمين، أحجم كثير من أبناء هذه الطائفة التحدث عن أمة عربية، خوفاً من أن تتكشف القومية العربية عن شكل جديد من أشكال التسلط الاسلامي، وفضَّل معظم كتابهم ومفكريهم التريُّث عن اعطاء موقف واضح في العروبة حتى تنجلي الأمور، وتتبلور بعض الالتباسات المبدئية. وبالفعل ظلَّ التيار القومي العربي يفتقر الى أبناء الطائفة المسيحية التي آزرت، منذ العصور الأولى للاسلام، العروبة، وكانت على الدوام خير مدافع ونصير لها، حتى طرح **نجيب العازوي** الكاثوليكي الذي يقول عنه جورج أنطونيوس «عربي مسيحي باشر نضالاته في السنوات الأخيرة في عهد السلطان عبد الحميد»، قضية الأمة العربية والوحدة العربية على أساس حديث ومفهوم علمي لا ديني، مؤكداً أهمية فصل الدين عن الدولة. وبذلك بدأت الأقلام المسيحية من جديد تأخذ مكانها العروبي الطبيعي وتشارك في القضايا العربية وتنشط في تأكيد انتماء المسيحيين الى العروبة والى الهوية العربية.

أسباب تأخر التيار القومي:

من يستقرىء التاريخ القديم والحديث، يرى أن العرب ظلوًا دائماً مرتبطين بتاريخ أمتهم وتراثها الانساني الخلاّق. وأكبر الظن أن الفكرة القومية التي تأخرت الى نهاية القرن التاسع عشر تعود أسبابها الرئيسة الى عاملين:

1 ـ **غياب المفهوم القومي**: استطاعت رابطة الجامعة الإسلامية العثمانية أن تستحوذ قلوب العرب المسلمين، وأن تنسيهم هويَّتهم القومية، عندما دعا بعضهم إلى الوحدة الدينية والرابطة الاسلامية التي لا تعترف بحدود وطنية أو مفاهيم إقليمية. وخير مَنْ مثَّل هذا الاتجاه **جمال الدين الافغاني** الذي يرى أن لا فرق بين مسلم عربي ومسلم اعجمي، لأن، الدين قد وحَّد بين القبائل والأجناس وصهرهم في أمة واحدة، وأكَّد أن النظريات الحديثة من قومية الى وطنية هي من صنع القوى الأجنبية الاستعمارية وحلفائها في المنطقة، المؤتمرين بأوامرها من أجل نهب ثروات البلاد الاقتصادية والسيطرة السياسية. ولهذا لم يثر العرب في وجه العثمانيِّين لإعادة دولتهم العربية، لاعتقادهم أن الرابطة الاسلامية التي آخت بين مختلف الأجناس والأقوام، هي رابطة تجمع شمل الجميع وتصون الحرية والكرامة. لكن النتائج السلبية التي أفرزتها سياسة الأتراك العنصريِّين قد قوضت من قوة هذه الجامعة، وفرضت معتقدات بديلة، علَّها تستطيع أن تؤطر الناس في وحدة معينة، وتجمعهم في قواسم مشتركة. وأظن أن الأفغاني ظُلِم من قبل بعض المفكرين الذين إدعوا أن **الأفغاني**، بحركته الدينية العالمية، قد عادى الحركة القومية عموماً، والقومية العربية خصوصاً. ولم يفقهوا موقفه المبدئي الذي ميَّز بين الجامعة الاسلامية،

كرابطة دينية تجمع مختلف الشعوب والأمم، وبين الوحدة السياسية لكل دولة أو بلد يدين بالاسلام.

لقد فقه **الافغاني** معالم وسمات الروح الوطنية والقومية المتبدية في الاسلام الذي جعل قسمته العالمية تتراءى من خلال تصويره للواقع الوطني والقومي لكل شعب من الشعوب التي دانت بهذا الدين[9]. فرفض فكرة تحكم الفرد الواحد في الشعوب والأمم، وأيّد قيام الوحدة لكل بلدان وشعوب الاسلام. والافغاني في آخر مرحلة من حياته النضالية، أعطى الفكرة القومية الحيِّز الأكبر من تفكيره، وهذا ما تجلى في رده على محاضرة المستشرق الفرنسي **أرنست رينان** الذي ضمن محاضرته هجوماً على الجنس العربي، وعلى «العقلية العربية السطحية» التي لا تتلاءم مع الفكر الفلسفي، مدَّعياً أن التراث العربي الاسلامي، انما هو نتاج شُعوب واجناس غير عربية. لقد خطّأ الافغاني معيار **رينان** للعروبة، القائم على عنصر العرق والجنس ونقاء الدم، وقال إن العروبة كانت سائدة قبل الاسلام الذي تمّاها ومدَّها بتعاليمه السمحاء، وأخلاقه الكريمة، وبيَّن أثر اللغة في عروبة الصائبة والحرَّانيين: «إن الحرانيين كانوا عرباً، وان اللغة العربية كانت، إلى ما قبل الاسلام بعدة قرون، لغة الحرانيين. وكونهم قد حافظوا على ديانتهم القديمة الصَّائبة، ليس معناه أنهم لم ينتموا الى الجنسية العربية»[10] إن معيار الافغاني هو سمة انسانية وحضارية، تقف اللغة في مقدمة قسماته: «لا سبيل إلى تمييز أمة عن أخرى إلا بلغتها» وقال أيضاً «ان الأمة العربية هي عرب قبل كل دين ومذهب»[11]. وهو لم يترك مميزات وخصائص القومية دون تحديد، بل حددها بخمس خواص هي: اللغة والأخلاق والعادات والإقليم وأخيراً الدين، وذلك عندما قال: «ان الحكمة قضت أن تكون الحواس البشرية المعروفة خمساً، وان يكون للإقليم خواصّ خمس، بها تميزت الشعوب والقبائل التي خلقها الله في نفس واحدة[12].

2 ـ **التفكك الداخلي والتفتيت الاستعماري**: كان نظام البلاد العثمانية اقطاعياً، يقوم على العمل الحرفي ومبدأ الالتزام والسخرة الذي يشل الطموحات القومية، ويقضي على المصالح المشتركة، ويكرِّس الوضع التفتيتي الذي يجعل المواطن القاطن جنوباً، لا يكترث ولا يعرف ما يجري لأخيه الذي يسكن شمالاً، إن هذا النظام، بفصله بين المناطق والقرى العربية، استطاع أن يغيِّب المفاهيم القومية، ويطمس الرغبات المشتركة خصوصاً وأن خطوط المواصلات، ووسائل النقل والإتصالات الحديثة ظلّت شبه معدومة حتى أوائل القـرن التـاسـع عشر. إن سياسة التجهيل المضروبة حول عنق الإنسان العربي، ومحاولة سلخه عن محيطه القومي، وتقوقعه في دائرة ضيِّقة، جعلت منه مواطناً يائساً، لا يرجى منه الكثير. إلا أن وصول محمد علي باشا الى السلطة في مصر وسورية، غيَّر الأوضاع، وقلبها رأساً على عقب، خصوصاً عندما أقدم على ضرب ركائز النظام اللاإقطاعي، وجدَّد في نمط العلاقات الاجتماعية والاقتصادية. فظهرت قطاعات انتاجية جديدة، كانت في الأمس القريب مهملة ومغمورة. وعندما أبدى محمد علي رغبته في اقامة دولة الوحدة القومية بين سورية ومصر، جزعت أوروبا من هذا المدّ العروبي، الذي يبدد آمالها في افتراس تركة الرجل المريض، فأقدمت على تثبيت سلطة السلطنة الإسلامية، وتصدت للتيار العروبي الناشيء، الذي لو استطاع أن يركز أركانه، لغيَّر أوضاع المنطقة بكاملها، مما يؤكد أن

أوروبا تُزين مواقفها بميزان مصالحها . فاذا كانت زمن محمد علي ، ساندت السلطنة العثمانية ، وتصدت للوحدة العربية وتيارها العروبي ، فإنها في الحرب العالمية الأولى ، على العكس ، أيَّدت السلطنة وشجعت حركات التحرر الوطنية والقومية المطالبة بالحرية والاستقلال ، لهدف تفتيت الامبراطورية وتسهيل عملية قضمها واحتلالها : فتقرير الدبلوماسي النمساوي **بروكش فون أوستن** عام 1833 زمن محمد علي ، أكد خطورة مثل هذه الوحدة على اوروبا قوله : « انني ارى مقابل عدم جدوى امكانيات الباب العالي ، ومقابل هيبته المتداعية يوماً بعد يوم ، جيشاً عربياً حسن التدريب ظافراً . . . وادارة تكاد تستغني كلية عن الأتراك ، ويقظة الروح القومية »[13] . ومثله تقرير قنصل بريطانيا في الاسكندرية عام 1822 الذي يشير فيه الى هدف محمد علي التوحيدي للمناطق التي يتكلم أهلها اللغة العربية ، ويطلب وجوب القضاء على الدولة الفتية . وهذا ما دعاه محمد علي في قوله متألماً : اذا اجتمعت كل الدول ألاوروبية العظمى ضدي . فانا أعرف أنها ستستطيع سحقي وتدميري ، إلا أنني في هذه الحال سأسقط بشرف »[14] . أما في فترة الحرب الأولى ، فقد نشطت أوروبا في تدعيم وتنشيط العمل القومي . فالانكليز والفرنسيون احتضنوا الحركة العربية الثائرة ، وتنافسوا في السيطرة على قيادتها . فبينما كان الانكليز يحمون كل متمرد في مصر ، ويحولون ، دون بطش الترك بهم ، كانت فرنسا تقوم بحماية المتمردين المسيحيين في بلاد الشام ، زاعمة لنفسها حق حمايتهم . وقد برز التنافس جلياً بين الدولتين في الجيش العربي ، عندما احتضن الفرنسيون بعض ضباط العرب مثل **نوري الشعلان** ، واحتضن الانكليز نوري السعيد الذي يصفه **لورانس** بأنه اليد الذي ينفِّذ بها الانكليز قراراتهم ، ويحققون رغباتهم .

تركيا الفتاة واليقظة القومية :

كان لسياسة تركيا الفتاة العنصرية أكبر الدور في تنوير العرب على قضاياهم القومية ومطالبهم العربية . هذه السياسة العرقية ، عملت تحت غطاء الجامعة الاسلامية ، على ضرب القوميات غير التركية ، وتذويبها في العنصر التركي الطوراني ، وصبغ الحياة العامة بالتركية : « علينا أن نعمد إلى الجيش والاسطول والعلوم والآداب والشرائع والقوانين وكل شيء فنصبغه بالصبغة التركية المحضة »[15] . إن طغيان وظلم الأتراك أدى إلى إثارة الحمية العربية وبالتالي إلى يقظة الأمة القومية . فكما أن الشعوبية الفارسية ، ظهرت نتيجة عنجهية الحكم العربي في أواخر العصر الأموي ، كذلك فان الشعوبية العربية ظهرت كردة طبيعية لعنجهية الأتراك الذين تفننوا بخططهم العدائية للعرب . وقد أوردت إحدى صحف اسطنبول مقالاً ، لأحد رجالات جمعية الاتحاد والترقي ، يستعلي فيه على العرب قائلاً : « إن الأمة التركية كانت وستظل هي الأمة الحاكمة ، وأن لها الحق في التمتع بحقوق وامتيازات اكسبها إياها حق الفتح ، وأنه ليس في امكان ولا محل للإعتراف بحقوق متساوية في الدولة للعناصر الأخرى »[16] . ان كره الأتراك الشديد للعرب جعلهم يطلقون أقوالاً مهينة ، جرت على السنتهم مجرى الأمثال . فهم يقولون في عرب الحجاز « ويلنجي عربي » أي « عرب الشحاذين » ، وفي عرب المصريين (كورفلاح) أي

«الفلاحون الأجلاف» ويعبرون بلفظة عرب عن الرقيق وكل حيوان أسود، وبلفظة (بس عرب) عن «العربي القذر»[17] هذا التعصب بلغ قمته عندما أقدمت فئة منهم حاقدة سمَّت تنقية الألفاظ العربية المستعملة في لغتهم، بلفظ التطهير، وكأن العربية نجسة دنَّست اللغة التركية[18]، وألَّف أحدهم كتاب «قوم جديد» مجموعة خطب، القاها صاحبه في المساجد، دعا فيها الشبيبة التركية إلى التعلق بتاريخهم، وتبجيل رجالاتهم القدماء والمحدثين أمثال **جنكيزخان وهولاكو وتيمورلنك وانور وطلعت وجمال**، وتعليق أسمائهم في المساجد بدلاً من أسماء الشخصيات الاسلامية الشهيرة **محمد وابو بكر وعمر وعثمان وعلي**... وكان المؤلف حين يذكر أسماء ملوك التتر والترك، يردف الاسم بعبارة (صلى الله عليه وسلم) أو (رضي الله عنه) أو (عليه السلام).

حيال تفاقم هذه الحالة المتردية، إنبرى رجال في النهضة العربية، يدحضون مزاعم الاتراك، ويلهبون مشاعر العرب القومية والدينية. جاء في احدى الخطب: «ان الترك جاروا على لغة القرآن وعدوها من النجاسات! إنفطرت القلوب، وفاضت العيون، وضج البيت والحرم، وكاد الركن يتحطم، وشكا القبر المعظَّم، وغضب الرب عز وجل...»[19].

والشعر العربي ساهم في تصوير هذه الحالة السيئة، وندَّد بسياستها الجائرة ومظالمها القاتلة فها هو أحد شعراء العرب يصف منزلة العرب فيقول:

«فأنتم بين أيدي الترك لا وطن	لكم ولكنَّ أصحاب البلاد همُ...
جاروا على لغة القرآن فانصدعت	له القلوب وضج البيت والحرم
فالقدس باكية والشام شاكية	وفي الحجاز يكاد الركن ينحطم.

ولعمر حمد الذي شنقه **جمال باشا** قصيدة تؤكد أن سياسة الظلم لا تدوم، فسرعان ما تنقشع الغيوم ويطلع الفجر:

لغة القرآن ودُّوا محوها	ويل قَومٍ أُغضبوا البيت الحراما
هذه نيَّاتهم بانت فلا	تنخدعْ يا شعبُ واحذرْ أن تناما
أخبر الظُلاَّم أنَّا أمةٌ	تكره الظلم وتأبى أن تضاما.

مرت حركة اليقظة القومية بمراحل تزامنت مع معطيات الواقع والأحداث المستجدة. انتقلت في غضون عشر سنوات 1908 ـ 1918، في التأييد المشروط لتركيا الفتاة إلى القطيعة التامة، حيث تنبَّه الشعب لمصيره، فعبَّر في طروح مبدئية عن تصوراته للمرحلة القومية التي سكبها في منتدياته وجمعياته. فجمعية «حفظ حقوق الملة العربية» قد دعت الى الوحدة المسيحية الاسلامية ضمن اطار العروبة، وأصدرت بياناً عرَّت فيه سياسة تركيا المنحازة، مُشعلة نيران التمرد عليها. «أين انتم وأين هم، من منكم اليوم أمير، ومن منكم اليوم وزير، ومن

منكم اليوم مدير ؟ بل كل واحد منكم فقير ، وكبيركم مثل صغيركم حقير ، والآمال والمال بأيدي الترك »[20] . أدركت هذه الجمعية أهمية وحدة المسلم والمسيحي ، فحضّت على تآلف الطوائف ، وذكّرت أن تركيا التي تعمل عى تعميق اختلافات مفتعلة ، تخاف من اتحادهما . ففي منشور لها تفوح منه نفثات قومية حادة ، طلبت من المسيحيين ضرورة الإتحاد مع المسلمين ، وعدم خداع أنفسهم ، بالاعتماد على حماية الغرب . في هذا الوقت ، ألّف دعاة القومية العربية ، جمعيات أدبية وسياسية ، وكتبوا قصائد ومقالات وطنية وقومية ، الهبت الشعور العربي ، برغم صدور القانون التركي في آب 1909 الذي يحظّر قيام جمعيات وأحزاب ذات أهداف قومية ، و« جمعية المنتدى الأدبي » . أنشئت في خريف 1909 في استانبول ، بعد أن نكّلت جماعة مصطفى كمال بالقوميين ، وأقدمت على حلّ « جمعية الاخاء العربي العثماني » لتطلعات بعض شخصياتها القومية أمثال عبد الكريم الخليل ورشيد رضا وعزيز علي المصري وشكري القوتلي وعادل ارسلان ونخبة من آل الصلح والعظم .

إتصف « المنتدى » بطابع قومي غير طائفي ، والتقى فيه أبناء العروبة ، للتشاور في قضايا ومطالب تهمّ البلاد . وقد عكس رئيس المنتدى عبد الكريم الخليل ، في أحدايثه اجواء التسامح والتآخي التي تعيشه مختلف الطوائف في ظل العروبة ، وذلك عندما أبعد العامل الديني عن العروبة وحدَّد أركان القومية بـ : « وحدة اللسان ووحدة التاريخ ووحدة الوطن ووحدة المنفعة المتوافرة كلية للأمة العربية »[21] . وكذلك قامت جمعيتان ، في لعب دور بارز ، في الأحداث العربية ، وفي بعث الروح القومية . الأولى هي جمعية « العربية الفتاة » التي ألفت عام 1911 في باريس ، على يد سبعة من الطلاب العرب ، وقد تغيَّر هدفها من الاستقلال الذاتي ، داخل اطار الأمبراطورية العثمانية ، ذات العرْف المزدوج : العربي والتركي ، إلى استقلال تام عن النير التركي . وقد إنضم إلى هذه الجمعية ، الملك فيصل عام 1915 ، بعد أن أخبره أعضاؤها في دمشق ، أنه في حال قيام الثورة العربية ، سيجد أهلها على استعداد لتأييده . والثانية ، « جمعية العهد » التي أسسها عزيز علي المصري في القسطنطينية عام 1913 ، وكانت عسكرية . أكثرية أعضائها من ضباط أبناء العائلات الاقطاعية كنوري السعيد وياسين الهاشمي وعلي النشاشيبي ، الذين تمردوا على الدولة العليّة ، وطالبوا بإقامة الدولة المستقلة . وأثناء الحرب العالمية الأولى ، اتصلت « جمعية العهد » « بالعربية الفتاة » ، ووحدتا وسائل عملهما ضد حكومة الأتراك التي لخوفها ، من قوة المد القومي المتنامي ، تداعت إلى اجتماع ، درست فيه فكرة اغتيال عزيز علي المصري ، واتخاذ عقوبات بحق العرب القوميين . لكن هذه الإجراءات ، لم تثنِ العروبيِّين ، عن متابعة نضالهم ، وملاحقة قضاياهم القومية ، خصوصاً وأن القضية القومية ، أصبحت مطلباً عاماً ، يتعلق بالوجود والمصير .

الجذور التاريخية للعروبة :

إن سقوط حكم فيصل في بلاد الشام 1920 ، الذي أنهى أهم الجمعيات العربية ـ العربية الفتاة وجمعية العهد ـ لم يستطع بالطبع أن يمحو ما خلفته من أفكار قومية ، انتشرت في المناطق العربية ، انتشار الهشيم في

الرياح، وتجذرت مع جذور القومية العربية، الضاربة في أعماق التاريخ. وهذا ما أشار اليه الباحثون في دراساتهم التي تؤكد، أن العرب كانوا يشعرون بقوميتهم، حيال الفرس والرومان، قَبْل الإسلام الذي صقل حضارتهم، ووحَّد بلادهم وقبائلهم، وجعلهم أمة واحدة، تدين برابطة العروبة، التي آخت بين المسلم والمسيحي، لقرون طويلة، لا يفرِّقهم معتقد أو مذهب. فكلهم موحدون قد صهروها بمبادئهم وأفكارهم وجعلوها تراثاً انسانياً وحضارة زاهرة، وكان للطائفة المسيحية، بما نقلته من معارف وعلوم بيزنطية ويونانية، أروع الفضل، في إغناء العروبة، التي جعلتهم لا يقلّون عن اخوانهم المسلمين، ارتباطاً بها. ودليلنا على ذلك المذاهب التي انتشرت، في بلاد الشام ومصر، من النسطوريين واليقعوبيين، والتي تميزت عن مسيحيي الغرب، بطابعها الشرقي العربي. وهذا ما أشار إليه الأستاذ **عبد الرحمن البزاز**، في محاضرة له عن «الاسلام والقومية العربية» عندما قال: «إن الناطقين بالضاد هم العرب من مسلمين ومسيحيين، وعلى المسحيين خاصة أن يعتزوا اعتزازاً كبيراً بما فعلوه في التاريخ، أسوة بالعرب المسلمين»[22]. هذا الكلام وان جاء على لسان أحد المسلمين، إلا أنه لم يخرج عن سربه، فالمؤرخ **قسطنطين زريق** الذي عكف على دراسة التاريخ العربي، رفض فكرة الاستئثار الاسلامي للحضارة العربية، وأكد مشاركة المسيحيين في صنع الحياة العربية، وتراثها العربي الاسلامي، معلناً أن مجتمعنا العربي اليوم يفتقر الى القومية التي تولِّد الشعور بالمسؤولية المشتركة، والارادة في خلق مجتمع». والأستاذ زريق يوضح أن مجتمعنا يتمتع بنوع خاص، ويستمد مبادئه «من الدين... الذي لا يكون بالنسبة الى العرب الا الإسلام»[23] أي خلاصة الحضارات العربية السامية والرسالات السماوية كما عرفه زريق. اذا كان الغموض قد لحق بمطالب الحركة العربية الاستقلالية في العصر الحديث، واذا كان من الطبيعي أن تتباين الدراسات والاجتهادات لظهور حركة أو نظرية جديدة، فإنه من المنطق أيضاً، أن تعرف القومية العربية تسميات عديدة، وأن تتشعب دراساتها وتأخذ أهدافاً ومضامين مختلفة. ولهذا فقد خالط الفكرة القومية، في بدء ظهورها، اضطراب، فالتبس بين القومية والشرقية والعروبة والاسلام، وأصبح التمييز بين هذه التسميات والتفريق بينها صعباً. وهذا ما حدا بالمفكر **محمد لطفي جمعة**، على الكتابة الى جماعة من الكتّاب، يتساءل عن المعنى المحدَّد لهذه التسميات المتشابهة: «هل المقصود بالأقطار العربية بالمعنى الصحيح البلاد التي يتكلم أهلها اللغة العربية بقطع النظر عن تابعيتهم ودينهم؟ أم البلاد التي تدين بالإسلام، وتخضع للمدنية العربية بحكم لغة القرآن»[24]. وكذلك وقف أدباء ومفكرو النهضة أمام هذه التسميات، يستجلون مميزاتها، فانقسموا زمراً وشيعاً، دافع كل طرف عن معتقده، بحجم ينسجم مع تفكيره. فالزعيم السوري **عبد الرحمن شهبندر**، الذي كان لفترة طبيباً خاصاً لجمال باشا، أعلن أن مفهومه للشرق، ليس غير بلاد العرب، وان الحضارة العربية في نظره، لاتختلف عن الحضارة الاسلامية. ولعل قول **مصطفى صادق الرافعي**، أفضل ما قيل في تبيان علاقة الشرق بالجامعة العربية والاسلامية: «الذي أراه أن نهضة هذا الشرق العربي، لا تعتبر قائمة، على أساس وطيد، إلا اذا نهض الركنان الخالدان: الدين الاسلامي والقومية العربية»[25]. أما بخصوص الوحدة الشرقية، فيعتقد أن هذه اللفظة قد أطلقت تمثلاً بالغرب، وكردة

فعل على تعصب الغربيّين لغربهم. فالأفغاني مثلاً كثيراً ما اتخذ من الجامعة الشرقية منبراً، لجمع الشمل، ومهاجمة سياسات الغرب الاستعمارية. ففي تحذيره لبلاد الشرق من أحابيل الانكليز وخططهم الخبيثة، طلب تنشيط عقول الأمم الشرقية، ولم شعثها، وتوحيد كلمتها: «ما قرعتُ آذان المسلمين والشرقيين عموماً بالحجج القاطعة، وهتكتُ استار الطامعين بالبراهين الساطعة... إلا لأقرِّب البعيد من زمن الاستعباد، واقصِّر طيات المسافة في الذل والمهانة التي لم يسقط بعد في المقاطعات الشرقية»[26].

القومية العربية والدين:

استطاعت الدولة العثمانية، بفعل رابطة الدين الاسلامي أن تحكم مختلف أمم الشرق وشعوبها. لكن ظهور النزعات القومية ـ التركية وغيرها ـ في القرن التاسع عشر، جعل العرب يتوقون الى تحقيق عزَّتهم القومية، التي حاول طمسها الاتراك الطورانيون، واذا كانت حركة القومية العربية، منذ نشوئها، قد استمدت نصوصها من الدين الاسلامي، فلأن شعبها المتدين آنذاك، كان لا يتقبلها، إلاّ من خلال معتقده الديني، وبات من الصعب الفصل بينهما. وأصبحت العروبة، هي الحقيقة القومية المطلقة للأمة العربية، والإسلام عقيدتها الكونية المثلى. واعتبر أصحاب هذا الاتجاه ان لا عروبة دون اسلام، ولا اسلام دون عروبة، وأن لا حياة ولا وجود لأحدهما دون الآخر[21]. لقد ألَّف الاسلام والعروبة أقنوماً أحادياً واحداً غير قابل للفصل أو التقسيم اعتماداً على قول الرسول (ص): إذا ذَلّ العرب ذلَّ الاسلام، وكذلك على قوله تعالى للرسول مفتخراً بقرآنه العربي الذي انزله على أمة محمد العربية: «وانه لذكر لك ولقومك». وقد اعتبر هذا المفهوم القومي معتدلاً خصوصاً حيال طروح بعض المغالين، الذين تعصبوا للدين ودعوا إلى الاسلام المطلق، وجرَّدوه كلياً من العروبة، اعتقاداً منهم، أن العروبة قومية، وإن القومية عقيدة أرضية واقليمية محددة، على حين أن الاسلام عقيدة سماوية وكونية مطلقة. **فالأفغاني** الذي يستفيض في علوم الدين وفقهه الاسلامي، يوصي هذه الأمة بعدم التفريط بهذه الرابطة الاسلامية: «هذه هي رابطتكم الدينية لا تغرنكم الوساوس ولا تستهوينكم الترهات، ولا تدهشكم زخارف الباطل... واعتصموا بحبال الرابطة الدينية التي هي أحكم رابطة، اجتمع فيها التركي بالعربي والفارسي بالهندي، والمصري بالمغربي.»[28] والشيخ **رشيد رضا** الذي دعا الى بناء الدولة الاسلامية، المبنيَّة على التضامن الديني، قد تنكر للشعور القومي، وعدّه من نتاج الانظمة الجديدة ذات العلائق القبلية، التي طمسها الاسلام وقاتلها الرسول الذي لم يكن يوماً يهدف إلى تعزيز مركزه الاجتماعي، أو تدعيم سلطة قبيلته. ولهذا عارض رشيد رضا العصبية التركية، وطرْحها القومي المتطرف، وعدَّها معولاً لهدم الأمبراطورية الاسلامية. رأى أن أفضل بديل لها ـ لبقاء الدين ـ هو في قيام الدولة العربية الاسلامية، «كلنا نعلم أنه لا يوجد في الدنيا كلها مكان، يصلح لتأسيس دولة اسلامية، تخلف الدولة العثمانية، اذا وقع بها ما نخشاه عليها، إلا جزيرة العرب وما يتصل بها من البلاد العربية»[29]. واذا كانت الظروف القاسية، التي أصابت المنطقة الاسلامية، قد جعلته يبدّل من مواقفه الدينية،

فإنه بقي، ولفترة طويلة، يعارض الطروح القومية، ويتبرأ من وجودها، ويقول عقب صدور الدستور، أثناء زيارته للقطر السوري: «فما رأيت فيما رأيت للنزعة الجنسية العربية حركة، ولا سمعت فيما سمعت لها دعوة، اللهمَّ إلا صوتاً لداعية الجمعية العربية العثمانية»[30]. وهكذا يتبيَّن من كل ما تقدم، ان دعاة هذا المفهوم، قد ارتكزوا، على مبدأ عالمية الدين (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)، ليبرهنوا أن رسالته الانسانية، التي لا تعرف حدوداً وقوميات، ولا تقتصر على منطقة، ذات طابع شمولي وقسمة عالمية. وأعتقد أن خطأ هذا الاتجاه، كونه لم يفرِّق بين الدين كمعتقد رباني يغمر البشرية عامة، وبين الدين كسياسة ودولة، يعترف بالقومية ويقرُّ بخصائصها التي تميزها عن غيرها. ودليلنا أن الله قد خلق شعوباً وأمما مختلفة (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة)، وجعل قضية التبشير الديني، والمساعدة المادية تبتدىء بالأقربين رحماً وجواراً. وأصبح الدين الاسلامي، يعتمد على ثلاثة مفاهيم هامة: المفهوم الوطني أولاً، والمفهوم القومي ثانياً، كون العرب ركيزة الاسلام وعصبته، والمفهوم الأممي ثالثاً، كون المسلمين، يعملون للجامعة الاسلامية وللانسانية جمعاء. ولم ينحصر الحديث عن روابط القومية العربية بالدين في رجال الفقه والعلم فقط - **الأفغاني ورضا** - بل تعداهم، ليشمل كبار السياسيين. **فنوري السعيد**، الذي تبوأ أعلى المناصب في العراق، ربط في «كتابه الأزرق» القومية العربية، بشعور الأخوة الاسلامية، الذي أوصى به الرسول (ص) في آخر خطبة له، وأوضح أنها تهدف الى بعث مدينة الخلفاء الراشدين. واعتبر **الأمير عبدالله**، ملك الاردن، في دراسته عن القومية العربية ان الرابطة الاسلامية التي حكمت أمماً وشعوباً مختلفة، لم تعد تجدي، خصوصاً بعد بروز العنجهية التركية وظهور المفاهيم القومية، والحركات الاستقلالية. يقول: «إن أوَّل مبدأ لحياة العرب السياسية، انما هو الرضوخ للقرآن والسنّة، وطالما سلَّم السلاطين العثمانيون بهذا المبدأ، كان العرب راضين بحكمهم، وان كانوا غير عرب، لكنهم إذا تخلوا في القرن التاسع عشر، عن مبادىء الاسلام، واقتبسوا نظام حكم غربي لا يفقهونه، انحلَّ رباط الولاء العربي، وأخذ العرب يفكرون بحكم عربي يكون وفياً للاسلام من جديد»[31]. وإذا كانت الظروف السياسية أجبرت رشيد رضا على قبول فكرة بناء الدولة العربية، القومية والدينية المستقلة، فإن المفهوم القومي الديني، بدا في كتابات زميله شكيب أرسلان، أقوى سطوعاً. فهو لا ينسى في مختلف الظروف وأصعبها رباطه بالعثمانية، حامية الدين، كما لا ينسى أبداً عروبته والفخر بآبائه العرب:

مهما يكن من هنَّات بيننا فلنا ... معكم على الدهر عهدٌ غير مقتضب
كفى الشهادة فيما بيننا نسباً ... إن لم تكن جمعتنا وحدة النسب
مجدي بعثمان حامي ملَّتي، وأنا ... لم أنس قحطان أصلي في الورى وأبي[32].

فشكيب وانّ كان من كبار دعاة العروبة، إلا أنه ظلَّ حريصاً على عثمانيته المسلحة، يعمل على عدم تمكين المستعمر منها، لذلك رأيناه، في الحرب العالمية الأولى، يتنكر لموقف زعماء العرب الذين أيَّدوا الحلفاء، وينتقد

الشريف حسين في خروجه على دولة الخلافة، وينهاه عن قرار مقاتلة الأتراك المسلمين، مؤكداً أن الخلاف مع الاتراك المسلمين لا يبرِّر إطلاقاً التعاون مع الأجنبي. ويقول: «اتقاتل العرب بالعرب أيها الأمير، حتى تكون ثمرة دماء قاتلهم ومقتولهم، استيلاء إنكلترا على جزيرة العرب، وفرنسا على سورية، واليهود على فلسطين»[33] وقد أملى صدقُ تصورات شكيب القومية والدينية معا، عليه موقفه المبدئي، المعارض للثورة العرابية، الذي أكدته وقائع الأحداث السياسية. فالملك **فيصل**، كتب إليه رسالة، إثر سقوطه عن عرشه في دمشق، يؤكد فيها فضله، في أخذ مبادرة الدعوة إلى الوحدة العربية. «أشهد بأنك أوَّلُ من تكلم معي من العرب في قضية الوحدة العربية»[34]. **والحاج أمين الحسيني**، الذي عرف أرسلان جيداً، قال عنه: «إن شكيب لم ينخدع في الحلفاء مع المنخدعين، وكان يجاهر بهذا ويقول لمخالفيه :أنا أشدُ عربية منكم، ولكني أعلم، أن الحلفاء سينكثون عهودهم وستظهر الحقائق لكم»[35]. ولكن أرسلان، بعد أن رأى حكام تركيا، يديرون ظهورهم للعرب والاسلام، قد نفض يديه من العثمانية، وأخذ يدعو إلى القضيتين العربية والاسلامية، مؤكداً أهمية تلازمها، لأن فقد الواحدة عنده، يعني خسران الأخرى، ويعدّ أرسلان بحق، أحد السبَّاقين في العصر الحديث، إلى تصور الوطن العربي ممتداً من الخليج العربي الى المحيط الأطلسي، وأحد المطالبين أيضاً، بعروبة لواء اسكندرونة العربية السورية، وقد أكّد، أكثر من مرة، أن ثقافة الأمة العربية، ثقافة أصيلة، وأن العرب من آراميين الذين هم أخوان العرب، وفينيقيين وكنعانيين، وعرب بربر شمال افريقيا، هم جميعاً سبَّاقون في معرفة العلوم والفنون والآداب، وليسوا مقلّدين، كما يدَّعي أعداء العروبة الشعوبيون. ولم ينفرد داعية العروبة والاسلام شكيب ارسلان بموقفه المعادي للشريف حسين والانكليز، بل شاركه الشاعر العراقي معروف الرصافي، بتحريض أبناء الوطن الاسلامي، على مقاتلة الأجانب الانكليز دفاعاً عن الأرض المقدسة وزوداً عن وطن يقام فيه دين الله:

يا قوم ان العدى قد هاجوا الوطنا ... فانضوا الصوارم واحموا الأهل والسكنا
واستنفروا لعدو الله كل فتى ... ممن نأى في أقاصي أرضكم ودنا...
واستقتلوا في سبيل الذود عن وطن ... به تقيمون دين الله والسُّنَنا[36]

وهكذا أخذ رجال النهضة، كل حسب منهجه واتجاهه، يتحدثون عن أوجه العروبة، ويتقصُّون مضامينها الانسانية، مؤكدين أن العروبة، الموجودة قديماً، قبل كل دين ومذهب، والتي طبعت شعوب المنطقة بحضارتها الواحدة، قادرة الآن، ومن جديد، أن تجمع شمل أبنائها على اختلاف مذاهبهم ودياناتهم.

عززت التطورات المتكررة مكانة القومية العربية، وأضحى الطرح العلماني، الذي يفصل الدين عن القومية، ويضع حداً لحيثيات الأزمات المفتعلة، أحد الاتجاهات الحديثة في النهضة. وقد اعتبر أصحاب هذا الاتجاه، أن الخطأ في ربط القومية بالدين، كونه يعدُّ فئوياً، وينحاز لطائفة معينة ولا يخدم المجموعة الأخرى. وأن العرب في يقظتها القومية، لا يُريدون أن تكون قوميتهم دينية، لأنها تثير التفرقة والبغضاء، وتورِّث مفاهيم متعصبة،

وتخلق القلق والإضطراب. وكان للبنان ومصر، المميزين في المنطقة، فضل ريادة هذا الاتجاه. فاللبنانيون مثلاً، وقد عانوا من النعرات الدينية والمذهبية، وتربوا في المدارس الأجنبية، كانوا السباقين في هذا المضمار. فهم من أوائل من أدخلوا المفاهيم القومية العلمية إلى المنطقة، ونشروا مبادئها. وشجعت المؤسسات الأجنبية والدول الاستعمارية الغربية، هذا الطرح العلمي للعروبة، وأخذت منذ ذلك الحين تختلق أحداثاً طائفية، وتلفِّق أحاديث كاذبة، تشوِّه بها سيَرْ كبار القادة المسلمين. كل ذلك من أجل تجريد العروبة من وجهها الحضاري والإنساني الذي بلغ أوجَه، في الدولة العباسية. لكنَّ روَّاد النهضة، الذين تأثروا بالحضارة العربية الاسلامية، انبروا يدافعون عن العروبة ويؤكدون أنها في ظل دولة الاسلام، لم تعرف تعصباً دينياً وطائفياً. وقد أثبت المؤرخون، أن الفتوحات الاسلامية، التي حدثت في عصر الخلفاء الراشدين، بمشاركة الطوائف والمذاهب الدينية المختلفة، قد اصطبغت بالهوية العربية. والدليل، وقوف عرب الشام والعراق ومصر، النصارى والاقباط مع العرب المسلمين، برغم خلافهم الديني والمذهبي معهم، وتفاهمهم مع الروم والفرس. واستطاعوا جميعاً أن يبنوا حضارتهم العربية الواحدة، ودولتهم الواحدة. وقد بقي المسلمون فيها اقلية لقرنين، عاش الجميع، في ظل رابطة العروبة، حياة انسانية كريمة.

القومية واللغة:

أعاد بعض روَّاد النهضة الحديثة، العروبة، إلى العامل اللغوي، والعلاقة الحضارية الثقافية، التي تصهر أبناء الوطن، على مختلف شرائعهم ودياناتهم، في وحدة متجانسة، ودولة واحدة. واعتبر أصحاب هذا الاتجاه، الذي فصل الدين عن العروبة، أن للدين مقاماً آخر وشأناً أخرويًّا، كونه عبارة عن علاقة الانسان بالخالق، الذي يحاسبه ويجازيه على أفعاله وأعماله. وقد برَّروا دعوتهم ضده، بما حدث في البلاد، من فتن ومذابح دموية، أودت بخراب البلاد، وبحياة الألوف من الأبرياء، خصوصاً بعد أن تأكد لهم، أن بعض السياسيين الطائفيين، يستغلون، أحداثاً سياسية أو فكرية، ليؤججوا الإقتتال المذهبي والنعرات الطائفية فقد رأى **أنيس الخوري المقدسي**، في العامل اللغوي، أهم باعث نهضوي للأمة العربية التي تشمل ـ حسب المقدسي ـ المناطق التي يتحدث سكانها بالعربية. «إذا لم يكن الدين أعظم جامعة لسكان الأقطار العربية، فأيّة جامعة هناك تقام مقامه؟ أي قوة تستطيع أن تضم هذه الأقطار، وتؤلِّف في كل منها وحدة قومية؟ هناك قوة واحدة، تستطيع ذلك هي اللغة»[37]. وقد عزَّز طرح المقدسي، قول آخر، أكثر قوة وتأثيراً أتى من بلاد الهند، مع رسالة **عبد الحق الأعظمي** إلى مجلة «المنار» البيروتية، والتي يطلب فيها تعميم اللغة العربية في العالم الاسلامي كله، وجعلها لغة التكلم والتعلم والتعامل، ويركّز على ضرورة حماية العنصر العربي الذي أعزَّ الله به الإسلام. فيقول: «فاذا غلب الأجانب، العرب على أمرهم، وانشبوا براثنهم في احشاء بلادهم، فلا عاصم للأمة بعد ذلك من أمر الله، ولا ملجأ ولا منجاة لها من نوائب الدهر وغوائله»[38]. لقد دافع عن العروبة، رهط من أدباء ومفكري النهضة.

فالشاعر المهاجر **رشيد أيوب،** المتحمس لعروبته، يراها أعجوبة الدنيا، بما ميَّزها الله، من عهد آدم، بأهم الخصائص والصفات يقول:

« فنحن بنو العرب كنا ولم نزل — بما خصَّنا المولى نفوق الأجانبا
ألسنا الألى سادوا العباد — ودوَّخوا البلاد وأبدوا في الحروب عجائبا
فما رَوَت الأيام في عهد آدم — إلى اليوم عن شعب يفوق الأعاربا » (39)

وأثبت الاستاذ محمد جميل بيهُم، في كتاباته التاريخية، انتماء مختلف المذاهب المسيحية من روم أرثوذوكس وكاثوليك وموارنة، وإلى عرب الغساسنة اليمانية، وأكد أن العنصرية العرقية أو الجنسية، لا تصح معياراً للقومية، وذلك بسبب اختلاط العناصر وتشابكها. وذكر أن الناس في التمدن الحديث، يعتبرون اللغة القومية الأم، الأساس الرئيس لوحدة الأمة(40) ونرى أيضاً الاستاذ **ساطع الحصري،** المتأثر بفكر وثقافة الاتراك، في تحديده لمقومات القومية العربية، يركّز، وهو الذي لم يتقن العربية إلا بعد انهيار الامبراطورية العثمانية، على هذا الأساس الموضوعي الذي « هو في نهاية الأمر، وقبل كل شيء آخر، اللغة »(41). وقد أجاز كثير من أدباء ومفكري النهضة الحديثة، من خلال هذا المفهوم اللغوي للأمة، اطلاق لفظة الشعوب العربية بدل الشعب العربي، وذلك لنطقهم بهذه اللغة الجامعة التي صهرتهم جميعاً وجعلتهم أمة واحدة. أما الأفغاني الذي عرفناه علماً من اعلام الجامعة الاسلامية، فقد اعطاها منزلة عالية، في حديثه عن مقومات القومية العربية، واعتبرها معياراً أساسياً لتحديد الذات والهوية القومية. فهي شريان الأمة، وأقنوم الحضارة، وقبلة الفخر والولاء. ولو أضاعت أمة لسانها، لفقدت بالطبع تاريخها وحضارتها. وهكذا! أظهر رواد النهضة، ان العروبة ليست عرقاً ولا نسباً ولا فطرية، وانما هي لغة وحضارة، تكتسب خصائصها في المجتمع الذي يعيشه الانسان. فأهالي مصر، تعربوا في فترة وجيزة، وصار المسلم والمسيحي واليهودي فيها، يذكرون ولاءهم للعروبة، قبل أن يذكروا جامعتهم الدينية. ويؤكد التاريخ، أن الجيوش العربية، التي قدمت الى فتح بلاد الشام بقيادة أبي عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد، لم تلق مقاومة المسيحيِّين الغساسنة، بل على العكس فقد وقفوا إلى جانب أخوانهم العرب المسلمين، وخطبوا ودَّهم، غير مكترثين للرابطة الدينية التي تربطهم بالروم. وأن عرب نصارى القدس، وبفعل الرابطة اللغوية أيضاً ساندوا القائد **صلاح الدين الأيوبي** ضد الأوروبيِّين المسيحيين. وفي العصر الحديث، قاتلت جماهير الشعب المصري، بمختلف أديانها ومعتقداتها، الاستعمار الغربي: الفرنسي والانكليزي، وأجبرته على الجلاء عن البلاد، وفي لبنان ندَّد العرب من ساسة وأدباء ومفكرين، بمجزرة 1860 الطائفية التي افتعلها الاستعمار، وكشفوا مخططاته، مؤكدين القاسم المشترك لعروبة جميع الناطقين بالضاد. **فعبد القادر الجزائري** بطل المقاومة في الجزائر، قام بحماية نصارى هذه الفتنة في دمشق، وأوضح أن العروبة الحق، لا تعرف تمييزاً وتفرقة وقال: « ان أصحاب الأديان الثلاثة، يشبهون ثلاثة أخوة من ثلاث أمهات » آخت بهم الحكمة الربانية، ودفعت عنهم

بواعث البغضاء والكراهية، وقد بيّن الرسول العربي، زارع أول بذرة قومية، منزلة اللغة من القومية، عندما ناشد قومه قائلاً: «أيها الناس ان الرب واحد، والأب واحد، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم، وانما هي اللسان، فمن تكلم العربية فهو عربي»[42]. فاسماعيل بن الأعجميّين، أصبح عربياً، عندما فتّق الله لهاته بهذه اللغة، وفطره على الفصاحة وسلخه من طبائع العجم. والكواكبي الذي أيّد مسعى الأفغاني في مطالبته الأتراك والسلطان عبد الحميد الثاني بالتعرُّب، ضناً بالامبراطورية وصوناً للاسلام، نراه في صيحته القومية، ودعوته إلى الوحدة الوطنية، يتجاوز استاذه الافغاني، ويناشد العرب في انتزاع السلطة من الاتراك، واعطاء الخلافة إلى قرشي، يعرف اللغة العربية وعلومها[43]. وهو إذ طلب الثورة على الأتراك، فلأنهم أذلّوا العرب وحطّوا من شأن عروبتهم وقال: «يا قوم جعلكم الله من المهتدين. كان أجدادكم لا ينحنون إلا ركوعاً لله وانتم تسجدون التقبيل أرجل المنعَّمين ولو بلقمة مغموسة بدم الأخوان، وأجدادكم ينامون الآن في قبورهم مستوين أعزاء، وانتم أحياء معوجَّة رقابكم أذلاء»[44]. وقد أثبت الأعلام الكبار، أن عزة العرب، كانت تعود دوماً إلى سياسة الحكام الرشيدة، التي لا تعرف تمييزاً وتعصباً. يقول الطهطاوي ان الملوك إذا تعصبوا لدينهم، وتدخلوا في قضايا الأديان، فإنما يحملون الرعية على النفاق»[45]. كصنيع محمد عبده الذي حمّل هؤلاء الحكام، مسؤولية ما يجري في المنطقة من أحداث سيئة، نتيجة تلاعبهم بالدين، وتحريفهم لنصوصه. «ان السبب فيما نراه الآن من تباين بين المسلمين وأهل الكتاب هو سياسة الملوك والرؤساء»[46].

القومية العربية والعلمانية:

وإزاء تدهور الأوضاع السياسية والاجتماعية، وخطورة الطروح الطائفية والمذهبية التي طغت على توجهات بعض الفئات المتعصبة، دعا بعض مفكري النهضة، ممن استهوتهم النظريات الاوروبية والأفكار الليبرالية الى مبدأ علمنة الدولة، وفصل الدين عن النظرية القومية، معتبرين أن تقدم الأمة وبعث نهضتها يتوقفان على نشر المفاهيم العلمية، وحصر المؤسسات في دور العبادة، ومع اقرارنا بالدور البناء الذي لعبه أصحاب هذا الاتجاه، في خلق نظرية أكثر تفهماً وتسامحاً، فإنه ظلّ مرتبطاً بالدور الأوروبي لأن غرض أوروبا الحقيقي من وراء دعم وتنشيط هذا الاتجاه، لم يكن من أجل نهضة هذه الشعوب وتقدمها، بل من أجل تفكيك عراها والهيمنة عليها. وقد أثبت التاريخ خطل ادعاءات أوروبا، وأظهر أن الدين في مختلف المجتمعات والعصور، لم يكن معزولاً عن تطلعات الحركات النهضوية: ألم تبدأ نهضة أوروبا نفسها في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، في ظل سيطرة الأفكار الدينية، والتمسك الشديد بالدين؟ وإذا كان البعض يظن أن نهضة تركيا، تفجّر بفضل حركة مصطفى كمال الليبرالية، والمتأثرة بالنهج الأوروبي، فإنه قد أصبح معروفاً، أن تركيا اليوم تعاني، رغم العلمنة، من مختلف وجوه التخلف والإضطراب. بينما كانت في عصورها الأولى والوسيطة، أثناء سيطرة العنصر الديني على مؤسسات الدولة وتوجهات الساسة، من أقوى دول المنطقة. ألم تزدهر الأمة العربية، في عصورها الاسلامية؟

ألم تتميز عن غيرها بعلومها وحضارتها، وبمعاداتها للظلم، وبناء دولة الحرية والتقدم؟.

رغم هذه الشواهد البيِّنة، فقد وقف بعض اعلام النهضة، ممن أساءت اليهم سياسة الأتراك، ونكلت بهم، يدافع عن المفهوم العلمي والمادي ويجتهد في رفد القومية العربية بأفضل القيم والمعاني الانسانية. ويُعتبر المفكر العربي **نجيب العازوري**، على حد قول بعض المؤرخين، الوحيد الذي طرح العروبة على أساس علمي حديث، تخطى الروابط الدينية كلية، وصفّى الدعوة العربية، والنزعة القومية من العناصر الدينية ولعلّ العازوري، ذا التربية الفرنسية، قد نجح في نقل يقظة العرب القومية إلى الفرنسيين، كما أثّر في نمو الحركة العربية. وقد فضح العازوري تحركات اليهود الصهاينة في فلسطين، فدعا إلى التصدي لمخططاتهم المشبوهة، الأمر الذي أضطر السلطات العثمانية إلى اصدار أوامرها إلى متصرف القدس، بمنع تمليك المهاجرين اليهود الأبنية والاراضي، خوفاً من إثارة المشكلات الدائمة في الأراضي المقدسة. لقد عبرت يقظة العازوري، في عقدها الثاني من القرن العشرين، عن طموحات الحركة العربية الثائرة، المطالبة بالاستقلال الكامل عن الأتراك، وحمّلتهم مسؤولية تدهور الأوضاع في المنطقة العربية. فدعا إلى اقامة دولة عربية مستقلة، في العراق وسورية ولبنان وفلسطين يكون أسلوب الحكم فيها دستورياً، مبنياً على المساواة التامة بين المواطنين، وفي الحقيقة، يعود طرح هذا المفهوم التوحيدي الجزئي للأمة العربية، إلى سبعينات التاسع عشر، وصيحات **بطرس البستاني** الوطنية والقومية، التي أكدت وجود شعور قومي، يضم أجزاءً من الامبراطورية: «إن الامبراطورية هي وطننا، لكن بلادنا هي سورية». وشملت جميع أجزاء سورية الجغرافية، الممتدة من جبال طوروس الى صحراء سيناء. ومنذ ذلك الوقت بدا اسم «سورية» يحتلّ مركزاً هاماً في المحافل السياسية. ولعلّ نشأة هذا المصطلح ـ التسمية ـ يعود إلى متخرجي مدارس الإرساليات الأميركية، من ارثوذكس وانجيليين وقلّة من المسلمين والدروز، الذين رأوا، أن استقلال لبنان يعني في تلك المرحلة، هيمنة النفوذ الفرنسي، ولذلك عملوا على دمجه في هذه المنطقة، تخلصاً من وضع الأقليات، والارتماء في أحضان الدول الكبرى. وكأن العازوري، الذي خلّده موقفه العروبي، بمطالبته بتوحيد الكنائس الكاثوليكية، المتعددة والمتنابذة، تحت اسم الكنيسة الكاثوليكية العربية، وتعريف لغتها وطقوس عبادتها، لم يستطع أن يستوعب امتدادات الشعب العربي وسعة أراضيه، فعزل مصر وبلاد شمال أفريقيا والمغرب عن جسم الأمة العربية، معتبراً أن الاتجاه القومي في هذه المناطق، وخاصة في مصر ضعيف، وأن التضامن الديني فيها لا يزال القوة الوحيدة القادرة على تحريك الرأي العام. أما **ساطع الحصري** الذي أيّد العازوري في فصل الهوية القومية عن الدين، وعارضه في سلخ مصر عن عروبتها، فقد دعا إلى ضرورة عودتها إلى اصالتها العربية التاريخية، خصوصاً وأن الطبيعة كما يقول: «ذوّدتها بكل الصفات والمزايا التي تحتم عليها أن تقوم بواجب الزعامة والقيادة في إنهاض القومية العربية».

وهكذا أخذت المفاهيم القومية ترسّخ في أذهان الجماهير العربية، وبدأ الروّاد يواجهون بها التيارات الإقليمية والعالمية، مؤكدين أن هذه القومية ليست عقيدة أو فكرة طارئة، تجاوبت مع حركة الاستقلال والنهضة القومية،

بل هي وجود حي خلاّق، متفاعل مع الظروف. وأضحت اليوم تلبي تطلعات الانسان العربي، بمختلف فئاته وطوائفه، وتطرح قضاياه الإنسانية.

الحواشي

(1) البرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة. دار النهار 1977 ص 33.
(2) جمال الدين الأفغاني: الكتابات السياسية جـ 2. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. 1981 ص 15.
(3) د. منير موسى: الفكر العربي في العصر الحديث، دار الحقيقة 1973، ص 193.
(4) أنيس المقدسي: الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث، دار العلم 1977 ص 107.
(5) علي المحافظة: الاتجاهات الفكرية عند العرب. الأهلية 1978 ،ص 130.
(6) جورج انطونيوس: يقظة العرب، دار العلم 1962، ص 161.
(7) بشير السباعي: الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث بدار إبن خلدون 1978، ص 145.
(8) نفس المصدر، ص 145.
(9) محمد عمارة: مسلمون ثوار، المؤسسة العربية 1974، ص 158.
(10) نفس المصدر، ص 172.
(11) نفس المصدر، ص 173.
(12) نفس المصدر، ص 173.
(13) مجلة الثقافة العربية تشرين الثاني 1971، ص 83.
(14) نفس المصدر ص 83.
(15) أنيس المقدسي: الاتجاهات الأدبية ص 123.
(16) محمد عمارة: ص 121.
(17) محمد عمارة: الاسلام والعروبة والعلمانية. دار الوحدة 1981 ص 140.
(18) رشيد ـ ضا: مختارات سياسية تقديم وجيه كوثراني، الطليعة 1980 ص 150.
(19) نفس الم ص 156.
(20) علي المحافظة: الاتجاهات الفكرية ص 132.
(21) سليمان موسى: الحركة العربية، دار النهار 1977 ص 32.
(22) البرت حوراني: الفكر العربي 368.
(23) نفس المصدر ص 369.
(24) محمد محمد حسين: الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر دار العلم 1970 ص 117.
(25) نفس المصدر ص 118.
(26) الأفغاني: الكتابات السياسية ص 20 و 21.
(27) مقالة في العروبة والاسلام، اسماعيل العرفي، دار الفكر 1980 14، 15.
(28) الافغاني: الكتابات السياسية ص 45.
(29) رشيد رضا مختارات سياسية ص 44.

(30) نفس المصدر ص 155 .

(31) البرت حوراني : الفكر العربي ص 355 .

(32) أحمد الشرباصي شكيب أرسلان : داعية العروبة والاسلام دار الجيل 1978 ص 89 .

(33) محمد محمد حسين الاتجاهات الوطنية .

(34) شكيب ارسلان : داعية العروبة والاسلام ص 90 .

(35) نفس المصدر ص 93 .

(36) معروف الرصافي ص 455 .

(37) محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية ص 119 .

(38) أنيس المقدسي : الاتجاهات الأدبية 131 .

(39) نفس المصدر ص 133 .

(40) محمد جميل بيهم : عروبة لبنان . دار الريحاني 1969 ص 73 .

(41) البرت حوراني : الفكر العربي ص 373 .

(42) محمد عمارة : الاسلام والوحدة القومية ـ المؤسسة العربية 1979 ص 160

(43) سليمان موسى : الحركة العربية ص 23 .

(44) سامي الكيالي : الأدبي المعاصر في سورية . المعارف مصر ص 126 .

(45) محمد عمارة : الاسلام والوحدة القومية ص 30 .

(46) نفس المصدر 219 .